حسّ الاغتراب في رواية "مولى الحيرة" لإسماعيل يبرير

The Sense of Alienation in the Novel Moula Al-Heera by Ismail Yabrir

د. إيمان دكدوك*

جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي

مخبر تعليمية اللغة العربية

imane.dekdouk@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠٥/١٣ القبول:٢٠٢٥/٠٥/٣٠

النشر ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

ملخص:

تسعى هذه الدّراسة إلى مقاربة تيمة الاغتراب في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، من خلال الاشتغال على نصّ **"مولى الحيرة"** للرّوائيّ **"إسماعيل يبرير"**، وقد حاولنا في هذا الصّدد استكشاف وملامسة عوالم الاغتراب النّفسيّ، والاجتماعيّ، والزّمانيّ، والمكانيّ والسياسيّ للشّخصيّة الرّوائيّة، وكذا أسباب وتداعيات هذا الحسّ، الّذي يسم العديد من الأعمال الرّوائيّة العربيّة عامّة، والجزائريّة على وجه الخصوص. وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي، واستعنّا بأدوات التحليل النّفسي الاجتماعيّ، لفهم تمثلات الاغتراب في الرواية بأبعاده المتعددّة، ومدى انعكاسها على الذات الجزائرية والعربية في السّياق المعاصر، من خلال تفكيك بنية السّرد والشّخصيات والزّمان والمكان وتحليلها في ضوء المفاهيم النظرية للاغتراب.

الكلمات المفتاحية: اغتراب؛ اغتراب نفسيّ؛ اغتراب اجتماعي؛ اغتراب زماني؛ اغتراب مكاني؛ اغتراب سياسيّ

Abstract :

This study aims to explore the theme of alienation in contemporary Algerian fiction, through an analysis of the novel Mawla al-Hīra by the author Ismail Yabrir. In this context, we have sought to examine and trace the dimensions of psychological, social, temporal, spatial, and political alienation as experienced by the novel's characters, along with the causes and consequences of this sense of estrangement, which marks many Arab novels in general, and Algerian ones in particular. This research adopts a descriptive-analytical approach and employs tools from psycho-social analysis to understand the representations of alienation in the novel in its various dimensions, and how these reflect on the Algerian and Arab self in the contemporary context, through deconstructing and analyzing the narrative structure, characters, time, and space in light of theoretical concepts of alienation.

KeyWords: Alienation; psychological alienation; Social alienation; Temporal alienation; Spatial alienation ; political alienation.

*د. إيمان دكدوك

المقدمة:

يعدّ الاغتراب حالة اجتماعيّة، وظاهرة إنسانيّة ملازمة للوجود البشريّ، تمتدّ جذورها إلى أعماق التّاريخ، إذ لم تكن وليدة العصر الحديث، وإنّما رافقت الإنسان منذ لحظة وعيه بذاته ومحيطه. فمنذ أن وعى الإنسان ذاته، والمشاكل والأزمات تغلّف مناحي حياته، ولعلّ أوّل مظهر من مظاهر الاغتراب الّذي عرفته البشريّة، ما ورد في السّرد الدّينيّ من قصّة آدم –عليه السّلام–، والّذي "يعود إلى تلك اللّحظة المتعالية الّتي غربت فيها الجنّة بنعيمها السّرمديّ عن آدم –عليه السّلام–، ونزل الأرض مغتربا عنها، وعن المعيّة الإلهيّة الّتي كان يحظى بها قبل عصيان أمر ربّه. فتلك هي –بحقّ وصدق– أولى مشاعر الاغتراب" (خليفة ع.، ٢٠٠٣، صفحة ١٩). فابتداء من هذه اللّحظة التي فقد فيها سيّدنا آدم –عليه السّلام– حالة القرب الإلهيّ ونعيمه السّرمديّ، بدأ أوّل شعور بالانفصال والتّيه، وظلّ الاغتراب يتغلغل في التّجربة الإنسانيّة، ويتعمّق أثره كلّما تراجعت القيم والأخلاق، وتفكّكت الرّوابط الأخلاقيّة والاجتماعيّة، وهذا ما يدفع الإنسان إلى اختيار طريق العزلة، التي ارتبط مفهومها بإحساس الفرد، بأنّ الآخرين لا يرتقون إليه فكريّا، وأنّ المجتمع أضحى بنية هشّة، لا تلبّي حاجاته الرّوحيّة والفكريّة، مما حتّم عليه البحث عن بناء ذاته ووعيه من جديد، بعيدا عن المجتمع.

من هنا يمكن القول: إنّ ظاهرة الاغتراب "تعدّ جزءا من نسيج الحياة اليوميّة للإنسان، تنعكس أبعادها في كلّ مناحي الوجود الاجتماعيّ والثّقافيّ، "وهي تأتي نتاجا لإكراهات شتّى تتمثّل في القمع التّاريخيّ والسّياسيّ والتّربويّ والاقتصاديّ" (وطفة، ١٩٩٨، صفحة ٢٤٢)، إضافة إلى تسارع الحداثة الّذي جعل الإنسان يفقد توازنه بين ذاته والعالم المحيط به.

وعليه تسعى هذه الدراسة إلى طرح جملة من الإشكالات أبرزها:

- كيف تتجلّى ظاهرة الاغتراب في النّص، بوصفها حالة إنسانية ووجودية في التّجربة المعاصرة؟
- ماهي انعكاسات هذا الاغتراب على الفرد، من حيث علاقته بذاته وبالمجتمع؟
- كيف استثمر الروائي هذه الظاهرة (الاغتراب) لخدمة توجهاته الفكرية والأيديولوجية؟

وقد اعتمد البحث على المنهج **التّحليلي –الوصفي**، من خلال تحليل المفاهيم النّظرية للاغتراب، وتتبّع تمظهراته في التّجربة الإنسانيّة المعاصرة، كما استعان بأدوات التحليل النفسي والاجتماعي، لفهم البعد الذاتي والجمعي للاغتراب، خاصة من حيث أثره في تكوين الهوية للفرد وتفاعله مع محيطه.

I. مفهوم الاغتراب:

يُعدّ الاغتراب من المفاهيم المحوريّة في الفكر الفلسفيّ والاجتماعيّ، وقد شغل مساحة واسعة من اهتمامات المفكّرين والمثقّفين عبر العصور، لما يتضمّنه من دلالات معقّدة ترتبط بطبيعة الإنسان وعلاقته بذاته، وبالآخر،

وبالعالم من حوله. فالاغتراب ليس مجرّد شعور بالانعزال أو الابتعاد، بل هو تعبير عن فقدان الانسجام بين الفرد وبيئته أو بينه وبين قيمه الدّاخلية، وهو ما قد يتجلّى في أبعاد مختلفة: نفسيّة، وجوديّة، ثقافيّة أو اجتماعيّة.

ويرتبط هذا المفهوم –عادةً– بالتّحوّلات الكبرى الّتي عرفتها البشريّة، مثل الهجرة والانتقال من المجتمعات التّقليديّة إلى الصّناعيّة، والتّغيّرات الثّقافيّة المتسارعة، وتنامي العولمة، فضلًا عن التّطوّرات التّكنولوجيّة الّتي عزّزت الفردانيّة وقلّصت التّفاعل الإنسانيّ المباشر. كما أنّ الأزمات الشّخصيّة، كفقدان المعنى، أو الشّعور باللاّجدوى، قد تكون سببًا مباشرًا في توليد الإحساس بالاغتراب، ممّا يجعله ظاهرة شاملة ومتعدّدة الأوجه، تتجاوز الانتماءات الجغرافيّة أو الزّمنيّة.

إنّ استعراض البحوث المتعلّقة بمفهوم (الاغتراب)، تكشف عن مدى تنوّع مدلولاته واستعمالاته، إذ من الصّعوبة وضع حدّ جامع، ومتّفق عليه بين الباحثين لمفهوم الاغتراب، يوضّحه بصورة دقيقة، غير أنّ إجماع الباحثين، يكاد ينعقد على أنّ "هيجل" (Higel) هو أوّل من استخدم مصطلح الاغتراب، استخداما منهجيّا مقصودا ومفصّلا، حيث تحوّل الاغتراب معه إلى مصطلح فنّيّ، ثم جاء بعده ثلّة من الفلاسفة والمفكّرين أمثال "كارل ماركس" (Karl marx) و"سارتر" (Sarter) الّذين استفادوا من طروحاته، حول مفهوم الاغتراب وطوّروها، وأصبح الاغتراب يقترن –في أغلب الأحوال– بكلّ المعاني السّلبيّة، وكلّ ما يهدّد وجود الإنسان وحريّته، فأضحى كأنّه مرض يصيب الإنسان الحديث.

١. الاغتراب لغة:

تنوّعت مدلولات كلمة الاغتراب في المعاجم العربيّة، واستخدمت ضمن سياقات عديدة ومتنوّعة، فقد جاء في **لسان العرب** لابن منظور أنّ التغريب: "هو النّفي عن البلد، وغَرُبَ: أي بعد، ويقال: اغْرُبْ عنّي، أي تباعد، والغربة والغُرْبُ: النّزوح عن الوطن" (منظور، دت، الصفحات ٢٣–٢٤).

كما ورد الاغتراب في معجم **مقاييس اللّغة**: "الغربة: البعد عن الوطن، يقال غربت الدّار، ومن هذا الباب، غروب الشّمس كأنّه بعدها عن وجه الأرض (فارس، دت، صفحة ٤٢١).

وقد دلّت لفظة الغربة، في معجم **العين**، للفراهيديّ، على "الاغتراب عن الوطن، وغَرُب فلان عنّا، يَغْرُبُ غربا، أي تنحّى" (الفراهيدي، دت، الصفحات ٤٠٩–٤١٠).

من خلال ما سبق ذكره، يمكن القول: إنّ الاغتراب في مفهومه اللّغوي، لم يخرج عن دائرة الانفصال،والبعد والتّبدّد والنّزوح عن الوطن أو النّاس، أو حتّى عن الذّات.

٢. الاغتراب اصطلاحا:

يعدّ الاغتراب من المفاهيم الإشـــكاليّة متعدّدة الدّلالات، إذ اســـتخدم في مجالات وميادين معرفيّة متنوّعة، كالفلسفة، علم الاجتماع، علم النفس، والأدب... وغيرها، ليصبح مصطلحا منفتحا على دلالات مختلفة، تعكس الحالات الشعوية التي يعيشها الإنسان، حين يشعر بالانفصال عن ذاته أو مجتمعه، أو القيم التي تحكم عالمه.

وردت لفظة الاغتراب في المعنى الاصطلاحي، بدلالات مغايرة ومختلفة باختلاف آراء الدّارسين وتوجّهاتهم، فنجد "خيري حافظ" يعرّف الاغتراب بقوله: "وعي الفرد بالصّراع القائم بينه وبين ذاته وبين البيئة المحيطة به، بصورة تتجسّد في الشّعور بعدم الانتماء والسّخط والقلق والعدوانيّة، وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابيّ أو شعور بفقدان المعنى أو اللّامبالاة، ومركزية الذّات والانعزال الاجتماعيّ" (حافظ، ١٩٨٠، صـــفحة ٩٧)، فالاغتراب هو حالة نفسيّة شعوريّة تصاحب الفرد، وينجم عنها شعور بالقلق والسّخط على الواقع والبيئة المحيطة به.

ويشـير "**صـلاح مخيمر**" إلى أنّ الاغتراب هو" نوع من الاضـطراب في علاقة الفرد بنفسـه والعالم، حيث يشـعر المرء بأنّه غريب عن ذاته، منفصـل عن واقعه، بسـبب فقدان المعنى المتمثّل –بصـورة أسـاسـيّة– في الهدف والقيمة، مما يعطّل الحركة الدّينامكيّة ما بين الذّات والواقع" (يوسـف، الاغتراب الإبداعي لدى الفئات الكلينيكية، ٢٠٠٥، الصفحات ١٤–١٥).

وترى "**سناء حامد زهران**" أنّ "الاغتراب هو شعور الفرد بعدم الانتماء، وفقدان الثّقة ورفض القيم والمعايير الاجتماعيّة، والمعاناة من الضّـغوط النفسـيّة وتعرّض وحدة الشّـخص للضّـعف والانهيار، بتأثير العمليّات الثّقافيّة والاجتماعيّة الّتي تتمّ داخل المجتمع" (زهران، ٢٠٠٢، صفحة ١٨).

بناء على ما ســـبق ذكره، يمكن القول: إنّ الاغتراب هو تجربة شـــعورية عميقة، يشـــعر الفرد من خلالها بانفصـــاله عن ذاته ومجتمعه، وعن قيمه ومبادئه، وأهدافه وطموحاته، حيث يبرز بعدها الشّـعور بالاسـتياء والتّذمّر والعداء والإحباط، والعزلة، واللاّمعنى وانعدام المغزى في واقع الحياة والتّشـــيّؤ، والعجز، وغير ذلك من المعاني الّتي تفضي إلى الإحساس بالوحدة والضّياع، حتّى وإن كان المرء في قلب مجتمعه.

II. تجليّات الاغتراب في رواية "مولى الحيرة":

شكّل موضوع الاغتراب مقوّما من مقوّمات الأدب الحديث والمعاصر، وغدا من أكثر الموضوعات تداولا في الكتابات الّتي تعالج مشكلات المجتمع المعاصر ، فقد وجد الأدب –بما يملكه من طاقة رمزيّة وقدرة على الغوص في أعماق النّفس البشـريّة–، في موضـوع الاغتراب مادّة خصـبة للتّعبير عن الانكسـار الإنسـانيّ، والتّمزّق الدّاخليّ، وفقدان الانســـجام مع الذّات أو مع المجتمع، حيث يلجأ الكاتب إلى نقل رؤيته اتّجاه الواقع والبيئة المحيطة به، حتى إنّنا لا نجد نصّا مائزا أو عملا عظيما خاليا من ومضات الاغتراب، بدءا من النّصوص القديمة عند اليونان، كالإلياذة والأوديسةّ اللّتين أماطتا اللّثام عن اغتراب الإنسان، وضعفه أمام عوامل الطّبيعة، مرورا بالرّوايات العالميّة الخالدة، التي عكســـت هذا الموضـــوع في أعمق تجليّاته، مثل البؤســـاء، والكوميديا الإنســـانية... وغيرها من الأعمال، الّتي كان لحضور الاغتراب فيها حسّ عميقّ.

لقد أضحى الاغتراب من أبرز الظّواهر حضورا في المتن الرّوائيّ العربيّ المعاصر، بسبب الصّراع السّياسيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ والفكريّ، ما أدّى إلى اهتزاز ثقة المبدع العربيّ في من حوله، فكانت تجربته الرّوائية انعكاسا لشتّى صور الاغتراب والصّراع الهويّاتيّ للإنسان العربيّ الباحث عن هويّته الضّائعة، وتحضر رواية "**مولى الحيرة**" لإسماعيل يبرير ، بوصفها نصّا روائيّا مشحونًا بحمولة وجوديّة وفكريّة عميقة، تجعل هذه التّيمة أحد محاورها الأساسيّة، بل مدارًا تدور حوله الشّخصيّات والأحداث. إذ لا يقدّم الاغتراب فيها كمفهوم مجرّد، بل يتجلّى في مظاهر حياتيّة ونفسيّة واجتماعيّة تتقاطع جميعها في تشكيل مأزق الوجود الفرديّ والجمعيّ.

تمارس الرّواية تمثيلا متنوّعا لحالات الاغتراب، بوصفه قدرا إنسانيّا يعكس أزمات الهويّة والحرّيّة، والمعنى في واقع عربيّ مأزوم ومضطرب، نلمسه من خلال مختلف أنواع الاغتراب الآتية:

١. الاغتراب الزماني والمكاني:

ارتبط الاغتراب بالمكان ارتباطا وثيقا، حيث شكّل الموطن (المكان) هاجسا على الدّوام، وأصبح –مع الوقت – قضيّة واضحة، لاسيّما حينما يضطرّ الإنسان إلى مغادرة المكان الّذي نشأ وترعرع فيه، إلى مكان آخر، نتيجة ظروف قاسية فرضت عليه ذلك، أو أن يلزم المكان نفسه، لكن ينشأ فيه شعور بغرابة المكان، ووحشيّته وفقدان الإحساس بالجذور، فيسافر بخيالاته وينساق وراء ذكرياته ليستحضر صورا جميلة ماضية، فيحنّ إلى ماضيه ويبكي حاضره، وهذا ماكان يشعر به (**بشير الدّيلي**)، بطل الرّواية، الّذي يقول عنه الرّوائيّ:"**مضى عبر الأزقّة، فيما كانت الوجوه تتشكّل تباعا مع حكاياتها، كان يقف مبتسما لأطياف البعض، يعانق بعضها، كانت حقيقيّة أو أقرب إلى الحقيقة، فيها دفء وقبول، لم ينبس ببنت شفة خشية أن تتلاشى أطياف المكان، رأى كلّ الّذين عبروا القرابة تباعا، قابلهم في أبهى صورهم، ولم يكن عليه أن ينتبه إلى الوقت، ولا إلى الجسد المنهك الّذي يرفض لقي إنذار الرّمق الأخير**" (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٤٦).

يعكس هذا المقطع السّرديّ حالة الاغتراب الدّاخليّ العميق الذي تعيشه الشّخصيّة، حيث يتداخل الواقعيّ بالحلميّ، والزّمن الخارجيّ بالزّمن النّفسيّ، ويصبح المكان حاضنا للذّكريات والأطياف، لا بوصفه حيّزا جغرافيّا فحسب، وإنّما كخزّان عاطفيّ يمتلئ بالوجوه والحكايات، ما يفضي عليه بعدا وجوديّا. وعلى الرّغم من وعي الشّخصيّة بفنائها الجسديّ، إلا أنّها تتشبّث بلحظة الحضور الحسّيّ، عبر الصّمت والتّأمّل، خشية أن تنكسر تلك اللّحظة الهشّة.

ويقول في موضع آخر واصفا شعور (**الدّيلي**): " **الجوّ صارم وباهت في الوقت نفسه، السّكّان يتغيّرون ويرحلون باستمرار، أصبح يشعر ببعض الغربة، ورغم ذلك يمنعه حنينه الّذي يجتاحه من كلّ الجهات أن يغادر الأزقّة وحكاياتها المتناسلة**" (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ١٩). وهنا تبرز مفارقة الشّعور بالغربة، في المكان الّذي يفترض أن يكون مألوفا، الجوّ الصّارم والوجوه المتبدّلة يعمّقان شعور (**الدّيلي**) بالانفصال، لكنّ حنينه، بوصفه قوّة وجدانيّة يشدّه للبقاء، وكأنّه يجد في الذّاكرة والقصص المتناسلة ما يعوّض فقدان الاستقرار الواقعيّ.

ويقترن اغتراب المكان باغتراب الزّمان أشــدّ الاقتران، حيث يشــعر الإنســان بعدم تواؤمه مع الزّمان الّذي يعيش فيه، وكأنّه يعيش في مرحلة لا ينتمي إليها، فينتابه شــعور بالعبثيّة، ويتنامى لديه حسّ الاغتراب، نتيجة مقتضيات فرضتها التّغيّرات السّياسيّة والاجتماعيّة، الّتي تطرأ داخل المجتمع، فيشعر الإنسان –خلالها– بعدم أهميّة الزّمان، يقول الرّوائيّ في هذا الصّدد: **"السّاعة الّتي بيده تشي بالسّادسة والرّبع، وهو يشعر أنّه اللّاوقت"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٢١١).

إنّ هذا الشّعور بالاغتراب، يعدّ من أشدّ التّجارب الإنسانيّة قسوة على النّفس، حيث تصبح المؤشّرات الزّمنيّة الواقعيّة (كالسّاعة) بلا معنى أمام التّجربة الدّاخليّة. فعلى الرّغم من أنّ السّاعة تشير بدقّة إلى السادسة والرّبع، إلّا أنّ الشّخصيّة، تشعر بأنّها خارج الزّمن تماما، إذ تعيش حالة من اللّاوقت، وهو ما يجسّد انقطاع الصّلة بين الذّات والواقع، ويعبّر عن حالة وجدانيّة يتلاشى فيها الإحساس بالتّتابع الزّمنيّ، لصالح لحظة شعوريّة معلّقة، كثيفة، أو حتّى فارغة من المعنى.

٢. الاغتراب النّفسي:

اختلفت آراء الباحثين في وضع مفهوم للاغتراب النّفسيّ، فمنهم من يرى أنّه "حالة نفسيّة يشعر الإنسان من خلالها بانفصاله عن الآخرين وعدم الانسجام معهم، وعدم القدرة على التّكيّف الاجتماعيّ، ممّا يضطرّه إلى الانعزال" (النوري، ١٩٧٩، صفحة ١٨).

ويرى **"وايت"(White)** أنّ الاغتراب النّفسيّ هو "اغتراب عن الذّات أيضا، حيث يرتبط ارتباطا موجبا بالاغتراب عن المجتمع، ومنهم من يذهب إلى أنّ الاغتراب غربة عن الذّات" (يوسف، الاغتراب والإبداع الفنّيّ، ٢٠٠٤، صفحة ٣٨).

وأمّا **عبد اللّطيف محمّد خليفة**، فيرى أنّ الاغتراب النّفسيّ "مفهوم عامّ وشامل، يشير إلى الحالات الّتي تتعرّض فيها الشّخصيّة للانشطار أو للّضعف والانهيار، بتأثير العمليّات الثّقافيّة والاجتماعيّة، الّتي تتمّ في داخل المجتمع" (خليفة ع.، ٢٠٠٣، صفحة ٨١).

يشير الاغتراب النّفسيّ إلى الحالة التي تتعرّض فيها وحدة الشّخصيّة إلى التّصدّع والاضطراب، نتيجة للضّغوط الاجتماعيّة والثّقافيّة الّتي تعيق نموّها المتوازن. وهو شكل من أشكال الانفصال الدّاخليّ، يشعر فيه الإنسان بأنّه غريب عن ذاته، وعن محيطه الإنسانيّ، غير قادر على تحقيق هويّته أو الانسجام مع واقعه. وتتجلّى هذه الحالة في فقدان المعنى، وانعدام التّواصل الحقيقيّ، وما يصاحب ذلك من أعراض نفسيّة كالقلق، التّوتّر، والفراغ الوجوديّ.

وتتجلّى هذه الصّورة النّفسيّة الدّقيقة للاغتراب في قول الرّوائيّ:**"يرتدّ إلى سؤال المراهقين القاسيّ: من أنا؟ ويضيف إليه في الغياب؟ ليرحم الشّيب اليافع على رأسه"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٢٤).

يبرز لنا هذا المقطع السّرديّ ذروة الصّراع الدّاخليّ والتّوتّر الوجوديّ الّذي يعيشه بطل الرّواية، إذ يعود إلى سؤال الهويّة الجوهريّ **"من أنا؟"**، هذا السّؤال الّذي يرافق الإنسان منذ مراهقته، لكنّه يتّخذ بعدا أكثر قسوة وإيلاما، حينما يرتبط بالغياب، الّذي يعمّق الشّعور بالتّيه، ثمّ تأتي الإشارة إلى "الشّيب اليافع" كتعبير ساخر عن النّضج المبكّر، المثقل بالتّجربة البائسة، حيث تسبق المعاناة مراحل العمر، فينضج الوجع قبل الأوان، ويستدعى سؤال الهويّة، في لحظة فقد وفوضى وانفصال.

ويقول في موضع آخر: **"حكى بكثير من التّحرّر عن شكله في وجوده، عن التّيه الّذي يسكنه، كان يواصل أحيانا ببعض الألم، ويبكي قليلا ثمّ يتوقّف"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٢٨٦).

لقد كان (**بشير الدّيلي**) يشعر بوحدة وفراغ نفسيّ رهيب، جعله يفتقد إلى القدرة على التّواصل حتّى مع نفسه، وقد عبّر عن تمزّقه الداخلي والتّيه الذي يسكنه، في محاولة استعادة شيئ من التوازن، فحديثه عن "شكله في وجوده" يشير إلى أزمة في إدراك الذات، كأنه لا يرى نفسه منسجما ومتّسقا مع واقعه وما آل إليه من تغيير. ويأتي البكاء هنا لا كضعف، وإنما كأداة مقاومة صامتة، ليعبّر بها عن الألم المكبوت، والحاجة إلى خلاص داخلي، وهو ما يجسّد بدقّة ملامح الانكسار النّفسيّ النّاتج عن اغتراب داخلي متواصل، ولّد لديه شعورا بالانفصال عمّا يرغب في أن يكون عليه، فكانت حياته تسير بلا هدف ولا معنى.

٣. الاغتراب الاجتماعيّ:

ينمو الفرد داخل المجتمع، وتنمو صورة ذاته من خلال ذلك التّفاعل الاجتماعيّ، الّذي يضع الفرد في سلسلة من الأدوار الاجتماعيّة، الّتي تضمن له الشّعور بوجوده داخل كينونة اجتماعيّة، لها مقوّماتها الخاصّة، وغياب هذا التّفاعل والانسجام مع قيم وأهداف المجتمع السّائد، يشعره بالوحدة والانسحاب، والشّعور بالنّبذ، إذ تتعمّق الهوّة بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان ومجتمعه، فيصبح غير قادر على أداء وظيفته في المجتمع، عاجز عن التّواصل مع مجتمعه.

ويتمثّل الاغتراب الاجتماعيّ "في شعور الفرد بعدم التّفاعل بينه وبين ذاته، وذوات الآخرين، والبرود الاجتماعيّ؛ أي ضعف الرّوابط مع الآخرين، وقلّة أو ضعف الإحساس بالمودّة والألفة الاجتماعيّة معهم، وينتج ذلك عن الرّفض الاجتماعيّ الّذي يعيش في ظلّه الإنسان في افتقاد دائم للدّفء العاطفيّ" (زليخة، ٢٠١٢، صفحة ٣٤٩).

يقول إسماعيل يبرير: **"أمضيا سنوات يلتقيان على سلالم العمارة دون تواصل، يتبادلان نظرات ترقّب، نظرات تستقرّ ما بين التّحيّة وتجديد اتّفاقيّة سلام"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ١٢).

يصوّر لنا هذا المقطع علاقة مشحونة بالصمت والتوتر، هذه العلاقة التي تعيش في الظل، وفي هوامش التفاعل، حيث يكون فيها اللّقاء متكرّرا لكن دون تواصل، ويكون محصورا في النظرات لا الكلمات، يبقي الشخصين في دائرة الحذر والانفصال، وهو ما يعكس حالة اغتراب نفسي عميق، جسدته نظرات الترقب تلك التي

ترمز إلى الترقب الدائم لردّ فعل الآخر، الذي يحضـــر جســـديّا ويغيب وجدانيا، إذ تقوم علاقته مع الأنا على توازن هشّ أو صـراع غير معلن، وهو ما يعبّر بدقّة عن ملامح الاغتراب في المجتمع المعاصـر، الاغتراب الاجتماعيّ الّذي يتجسّـــد في تلك العلاقات الهشّـــة، والانعزال عن المحيط، حيث يجد البطل نفســـه غريبا، حتّى – وهو– بين أقرب الناس إليه.

ويقول أيضـا: **"لم يعد بوسـع الكثيرين الجزم بأنّ الشّـوارع هي الشّـوارع، الحيّ هو الحيّ والمدينة هي المدينة ذاتها"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٦٢).

إنّ هذا التّيه الّذي يعيشه بطل الرّواية، أفقده الشّعور بالأمن والقدرة على تكوين علاقات اجتماعيّة حميمة، إذ أصـبح يشـعر بالبعد عن الآخرين، والانعزال عنهم حتى وإن وجد بينهم، فكانت تحيطه حالة من اليأس، وفقدان لمعاني وجوده وأهدافه،كما كان يعيش أيضا مشكلة في إحساسه بالانتماء إلى عالم، يملؤه ما هو غير مألوف بالنسبة له، مما أثّر عليه كعنصر اجتماعيّ، فأفقده الشّعور بالاتّزان، والقدرة على التّواصل مع أفراد مجتمعه.

ويقول في موضـــع آخر: **"أنا الدّيلي الّذي نســـيت أيّها الحيّ الكوخ العظيم، أنا الّذي منحكم الفرح والانتماء...."** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صـــفحة ٢١٠). إنّنا إزاء اعتراف بالضّـــياع والاغتراب، حيث تعيش الشّخصية قلقا وانفصاما وتردّدا، تبدّى في انكسار العلاقة بينه وبين المكان/ الحيّ (الكوخ العظيم)، الّذي كان –في يوم من الأيام – مصـدر انتمائه وفرحه، لكنّه –اليوم– يتجاهله. وتأتي نبرة الخطاب ممزوجة بالألم والعتاب، لتجسّـد لنا مأساة الإنسان، حينما ينبذ ويقصى من المكان الّذي نشأ وترعرع فيه، وأسـهم في بنائه عاطفيّا وروحيّا، فيتحوّل ذلك الانتماء إلى قطيعة، والعطاء إلى نسيان.

٤. الاغتراب السياسي:

يعدّ الاغتراب الســـياســـيّ أحد أبرز أشـــكال الاغتراب في المجتمعات المعاصـــرة، ونتيجة حتمية للاغتراب الاجتماعي، ويمكن تعريفه بأنه حالة من الشـعور بالعزلة عن النظام السـياسـي والمسـؤولين السـياسـيين في الدولة، وفقدان الثقة فيهم (الشرقاوي، ٢٠٠٩، صفحة ١٤).

ويقترن الاغتراب السـياسـي بشـعور الفرد أو الجماعة بالانفصـال عن النظام السـياسـيّ، وفقدان فعاليتهم في المشـاركة في صـناعة القرارات أو إحداث التّغيير، مما يدفعهم إلى الانسـاحب من الحياة السّـياسـية، إمّا تعبيرا عن اللامبالاة، أو احتجاجا صامتا عن اختلال المنظومة السياسية.

وبالعودة إلى نص **"مولى الحيرة"**، نجد أن مظاهر الاغتراب السّياسي تتجسّد بوضوح من خلال الشّخصية المحورية (**بشـير الديلي**)، والذي يمثّل صـوت جيل آمن بالثورة وبمبادئ الفكر اليسـاري، بوصـفه أداة لتحقيق العدالة والكرامة والحرية، غير إنّ هذا الإيمان سرعان ما اصطدم بواقع سياسيّ مغاير، خان تطلّعاته وأحلامه، وكرّس أشكالا جديدة من التهميش والإقصاء.

لقد وجد (**بشير الديلي**) نفسه مهمشا، متفرّجا على سلطة لا تعبّر عنه، فاختار طريق العزلة والصمت كأداة للتعبير عن سخطه لهذا الواقع – الذي عمّق لديه الشعور بالخيبة والانكسار– وكشكل من أشكال المقاومة السلبية، وكانت صورته في النص تجسيدا جليا لأزمة المثقف العربي، في الفضاء السّياسي الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال، الذي تحوّل من ضمير جمعي إلى كائن هشّ ومهمّش، عاجز عن التأثير في السياسات العامة وفاقد للثقة.

لقد نجح الروائي "**إسماعيل يبرير**" في تصوير رؤيته اتجاه العالم واستطاع أن يفكك بنية الاغتراب السياسي، من خلال تركيزه على التحولات العميقة في علاقة المثقف بالسلطة، يقول في روايته واصفا (**بشير الديلي**): "**لم يعد ماويا ولا ماركسيا تروتسكيا ولا يساريا، لم يعد شيئا سوى هذا الكائن الذي يزحف ببطئ ليسلم من ورطة الوقت من مأزق العالم**". (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٣٢٦).

ويضيف قائلا: "**مينا لا يعنيه كثيرا أن يسمع أخبار العالم، يهتم فقط بأخبار محيطه الضيق ويتمنى الخير للبقية، ربما لأنّ اليسار لم يكن قطريا عكس اليمين، ربّما لأنّ الفكر الذي رضعه الدّيلي أو أرضعه نفسه كان متحررا من الأفراد**" (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٣٢٦).

يعبّر هذا المقطع بكثافة عن تمزّق الذّات المثقّفة في المجتمع الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال، ويجسّد حالة انهيار هوياتيّ، حيث يتخلّى البطل عن جميع انتماءاته الأيديولوجية (الماوية، الماركسية، التروتسكية، اليسارية)، والتي كانت تعطي لحياته معنى وهدفا، لكنّها الآن تفقد فعاليتها في ظل مشـــاكل وتعقيدات المجتمع، وقد جاءت عبارة "**يزحف ببطء**" لتعبّر وتؤكّد لنا عن هشـــاشـــة الوجود الإنســـاني بعد فقدان كل الأطر الفكرية والدّلالية، التي كانت تمنحه ذلك التّماسك الدّاخلي، ليصبح الفرد يسير نحو اللاانتماء والفراغ والانكسار.

ويأتي المقطع الثاني من الرواية ليؤكد لنا فكرة الاغتراب السياسي والثقافي الذي يعيشه بطل الرواية، وليكشف لنا عن خيبة المثقف اليساري الذي يجد نفسه أمام واقع لم يعد يستجيب للمبادئ الكبرى التي تبنّاها.

إنّ الفكر اليســـاري، الذي كان منفتحًا على العالم ومتجاوزًا للحدود القطرية، بدا عاجزًا عن تحقيق تأثير فعلي في الحياة اليومية، مما دفع أتباعه إلى الانكفاء والانعزال.

ويتّسق هذا التجلي لحالة الاغتراب بشكل أكثر عمقا مع مقطع آخر من الرواية، يعمّق هذا الإحساس بالعزلة والانفصال، حيث يقول السارد: "**لو سأله أحدهم: هل أنت يساري، تقدّمي، حداثيّ، علمانيّ، عالم ثالثيّ؟ هل أنت إســـلاميّ، عروبيّ، وطنيّ؟ لو ســـأله: ما أنت؟ لصـــمت وغادره؛ لأنه يتحول إلى مأزق وجوديّ هوياتيّ**" (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٣٨٤). إنّها أزمة هويّة وجوديّة، إذ أضحت الأسئلة السّياسيّة والأيديولوجية عبئا نفسيا لا يملك بطل الرواية إجابة عنها، ليس لجهله لمعناها فحسب، بل لأنّ التّصنيفات فقدت معناها أمام واقع مرتبك، فكان سبيله للنجاة هو "الصّمت" كوسيلة للاحتجاج على عالم مهتزّ، يلزم الفرد بانتماءات جاهزة، لا تعكس حقيقته، ممّا يعمّق لديه الشّعور بالاغتراب الهوياتي، وفقدان المعاني في ظل التباسات فكرية، وسياسية، لا نتتج سوى الحيرة والانكفاء.

ويواصل السّارد تصويره لهذا المشهد السياسي، فيقول: **"لو سأله أحد لقال: لم تعد هناك حواجز، اليسار أفلس، اليمين والاعتدال والإرهاب والاقتتال والدّين واللّادين والخوف والحلم والنّظام والفوضـــى والثّورة والدّولة والفرد، كلّها أفلســـت، لم يعد هناك مفاهيم، كل مفهوم يســـتولي على باقي المفاهيم ويذيبها أو يسلخها، يمكن للإشتراكيّة أن تكون دعوة دينيّة، يمكن للامبرياليّة أن تكون تنافسا شريفا، يمكن للإرهاب أن يكون جهادا والعكس، يمكن للخوف أن يكون قتلا، يمكن للقاتل أن يكون مخلّصـــا، يمكن للنظام أن يشيع الفوضى، يمكن للثورة أن تسحق الأبطال، يمكن للدولة أن تزول، ويمكن للفرد أن يصاب بفصام حاد يعدّده، وهذا وجه من وجوه الديمقراطيّة، يمكن للفرد أن ينسى عدده وترتيبه وهويته ولغته، أن يصاب بعسر في التّواصل، وعسر في تفسير اليوميّ"** (يبرير، مولى الحيرة، ٢٠١٦، صفحة ٣٨٤).

يعبّر هذا المقطع بكثافة وعمق عن حالة اغتراب معرفي ووجودي شامل، إذ تنهار الحدود وتتلاشى بين المفاهيم الكبرى التّي شكلت وعي الإنسان وإدراكه لعقود من الزمن، فشخصية (**بشير الديلي**) تعيش في عالم فقد معاييره، حيث تسيّدت الفوضى وتغلغلت في نسيج الحياة، وغابت الثوابت التي تضبط المجتمع، واختلطت المعاني وذابت في بوتقة واحدة: اليسـار والدّين، الإمبرياليّة والشّـرف، الإرهاب والجهاد، النّظام والفوضـى. هذا الانهيار في المعنى أنتج أزمة إدراك حادّ، ودفع الفرد إلى فقدان ذاته، وهويته، وتمزّق علاقته باللّغة والواقع، فالعجز عن تفســـير اليومي والتواصـل مع الآخرين، هو وجه من وجوه الاغتراب العميق، لا السّـياسـيّ فحسـب، بل نفسـيّ ووجوديّ، يجعل الإنسان كائنا فاقدا للتّوازن داخل عالم متشظّ، يذوب فيه المعنى وتفقد الكلمة دلالتها.

الخاتمة

استنادًا إلى ما سبق من تحليل ورصد لمظاهر الاغتراب في رواية **"مولى الحيرة"**، سواء على المستويات النفسية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، واتساقًا مع ما أبرزته مقاطع الرواية من تمثيلات سرديّة دقيقة لحالات التمزّق والقلق والتهميش، يمكننا في هذا السّياق إجمال أهم النتائج المتوصّل إليها في النقاط الآتية:

- تتعدّد وتختلف أنواع الاغتراب ويأخذ أشـــكالا متنوعة، فقد يكون زمانيّا عندما يشـــعر الإنســـان بعدم الانتماء إلى عصـــره، أو مكانيّا حينما يجد نفســـه بعيدا عن جذوره الجغرافيّة أو الثّقافيّة، كما قد يكون اجتماعيّا عندما يشـعر بالغربة داخل مجتمعه، بسـبب اختلاف قيمه وتوجّهاته، ونفسـيّا حين يفقد الفرد التّوافق مع ذاته ومشـاعره، كلّ هذه الأشـكال، تعكس تجربة إنسـانيّة عميقة تتراوح بين الحنين والضّـياع، وبين البحث عن الهويّة والمعنى في عالم سريع التّغيّر.
- تطرح رواية **"مولى الحيرة"** إشـكالات فلسـفيّة كبرى، قضـيّة الإنسـان ووطنه، قضـيّة الاغتراب والضّـياع، الاغتراب في الوجود، الاغتراب في المكان، في النّضـال، في السـياسـة، في الحبّ، وغيرها من القضـايا الّتي

وسمت الرّواية، ورصـدت واقع الشّـخوص والمجتمع من زوايا نظر مختلفة، عندما يخوض الجميع حربا ضـدّ الجميع، إنها تضعنا أمام جدليّة الإنسان والمكان والقيم، حيث يموت الإنسان وهو حيّ.

- تحملنا الرّواية إلى عوالم تنبض بالضّـياع والاغتراب، لتعكس لنا تجربة اغتراب شـاملة، تتقاطع فيها الأبعاد المختلفة ، ممّا يجعلها مرآة للتّحوّلات العميقة التي يعيشـها الإنسـان في العصـر الحديث، كما تجسّـد لنا الاغتراب، كحالة وجوديّة تلازم الإنسـان، تتجاوز حدود الزّمان والمكان، لتتغلغل في أعماق النّفس. ومن خلال رحلة البطل (**بشير الدّيلي**) يكشف لنا الرّوائي "إسماعيل يبرير"، عن واقع الاغتراب، بوصفه قدرا، لا فكاك منه، حيث تتشابك الأسئلة حول الهويّة والانتماء دون إجابات قاطعة.
- تؤكّد الرّواية أنّ الاغتراب ليس مجرّد حالة عابرة، بل هو تجربة إنسـانيّة متجدّدة تتشـكّل بفعل التّحوّلات الاجتماعيّة والثّقافيّة، وبذلك يظلّ البطل — ومعه القارئ– عالقا بين البحث عن الذّات وضـياعها، وبين الحنين لما مضى، والخوف ممّا هو آت ، ليصبح الاغتراب مرآة عاكسة لمختلف صراعات الإنسان في عالم يتغيّر باستمرار.
- أبرزت رواية "**مولى الحيرة**" مظاهر الاغتراب السـياسـي من خلال شـخصـية المثقف الذي فقد إيمانه بالجدوى السياسية، بعد خيبة أمله في واقع ما بعد الاستقلال، ويتجلى ذلك في انسحابه من الحياة العامة وشعوره بالعجز والتهميش داخل نظام لا يمثله.

قائمة المراجع:

١. ابن فارس، (دت)، *معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون،ج٤ ، دط*، بيروت- لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢. ابن منظور، (دت)، *لسان العرب، مجلد ١١ ،* بيروت- لبنان: دار صادر.
٣. أحمد خيري حافظ، (١٩٨٠)، سيكولوجية الاغتراب لدى طلاب الجامعة، *رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس ، مصر*.
٤. إسماعيل يبرير، (٢٠١٦)، *مولى الحيرة، دط*، الجزائر: حبر للنشر.
٥. الخليل بن أحمد الفراهيدي، (دت)، *العين، تح: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، ج٤ ،دط*، بيروت- لبنان: دار مكتبة الهلال.
٦. جديدي زليخة، (جوان، ٢٠١٢)، الاغتراب، *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة*، العدد ٨، المجلد ٤.
٧. سناء حامد زهران، (٢٠٠٢)، فعاليّة برنامج إرشاد صحّة نفسيّة عقلانيّ انفعاليّ لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب لدى طلّاب الجامعة، *رسالة دكتوراه، كلية التربية بدمياط، جامعة المنصورة، مصر*.
٨. عبد اللطيف محمد خليفة. (٢٠٠٣). *دراسات في سيكولوجيّة الاغتراب، دط*، مصر، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
٩. علي وطفة، (أكتوبر/ديسمبر، ١٩٩٨)، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، *عالم الفكر*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢، المجلد٢٧.
١٠. قيس النوري، (أبريل ١٩٧٩)، الاغتراب اصطلاحا، مفهوما وواقعا، *عالم الفكر*،العدد١، المجلد١٠.
١١. محمد عباس يوسف، (٢٠٠٤)، *الاغتراب والإبداع الفنّي، دط*، مصر: دار غريب للطباعة والنشر.
١٢. محمد عباس يوسف، (٢٠٠٥)، *الاغتراب الإبداعي لدى الفئات الكلينيكية، دط*، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
١٣. منى عبد الله الشرقاوي، (٢٠٠٩)، صورة السلطة السياسية وعلاقتها بالاغتراب السياسي لدى عينة من طلاب الجامعة (دراسة مقارنة ميدانية)، *رسالة ماجستير، عين شمس، القاهرة*.